

العنوان: مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية

المصدر: أعمال الندوة الوطنية (المواقع الأثرية في منطقة الغرب بين البحث العلمي والبعد التنموي) - كلية الاداب والعلوم الانسانية بالقنيطرة - المغرب

المؤلف الرئيسي: الطاهري، أحمد صالح

مؤلفين آخرين: بدوي، إبراهيم، مفتاح، نور الدين(م. مشارك)

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2005

مكان انعقاد المؤتمر: القنيطرة

الهيئة المسؤولة: المغرب . جامعة ابن طفيل . كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الصفحات: 73 - 94

رقم MD: 324592

نوع المحتوى: بحوث المؤتمرات

قواعد المعلومات: HumanIndex

مواضيع: الرباط، المغرب، البصرة، التخطيط العمراني، الآثار، المواقع الأثرية، الصناعة، التجارة، المنازل، الأحوال الاجتماعية

مدينة البصرة
من خلال المصادر التاريخية والمخلفات الأثرية

الأستاذ أحمد صالح الطاهري المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث – الرباط
الأستاذ نور الدين مفتاح مندوبية وزارة الثقافة – القنيطرة
الأستاذ إبراهيم بدوي، الخزانة الجهوية – القنيطرة

مدخـــل

تعد مدينة البصرة إحدى أهم المدن الإدريسيـة التي عرفت تاريخا حافلا بأحداث سياسيـة واجتماعيــة وبإشعاع حضاري متميز، كما شكل، منذ نهاية القرن الثاني الهجري وإلى غاية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، إحدى أهم المراكز الاقتصادية المغربية سواء على مستوى الإنتاج الفلاحي والصناعي أو على المستوى التجاري. غير أن نمو واستمرار هذه المدينة لم يكتب له النجاح الذي عرفته مدن إدريسية أخرى في القرون اللاحقة، ولعل أهم سبب أعاق استمرار إشعاع مدينة البصرة راجع إلى صراع الفاطميين والأمويين الذي كان من بين أهدافه الاستيلاء على بلاد المغرب.

ومن خلال هذه الدراسة، سنحاول إظهار بعض جوانب تاريخ هذه المدينة التي تعد اليوم من أغنى المدن الأثرية المغربية بسبب ماتكشف لنا عنه يوما بعد آخر، موادها الأثرية.

يعـد ما أنجز لحـد الآن من حفريـات وأبحـاث محدود وقليـل بالمقارنـة مع مساحـة الموقـع الأثـري، لكن هذا لايعني التقليل من أهمية النتائج المحصل عليها.

تجب الإشارة إلى أن الموقع شهد في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي برامج لحفريات أثرية محدودة، أولها تلك التي قام بها الباحث شارل ريدمان سنة 1980، وانطلاقا من سنة 1990 وإلى غاية سنة 1999، قامت خمس بعثات مغربية أمريكية باستئناف الأبحاث وذلك في إطار التعاون العلمي بين المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وجامعـة جورج واشنطن. وفي هذا الإطار تم إنجاز استبارات أثرية محدودة ورفوعات طبوغرافية ومسح جيوفزيائي لبعض أجزاء الموقع، بالإضافة إلى عدد من الحفريات والدراسات في المختبر.

I - اسم وموقع ونشأة مدينة البصرة من خلال المصادر التاريخية والآثار :

ورد اسم البصرة المغربية في العديد من المصادر التاريخية، مع تحديد موقعها بالمغرب مقارنة بالبصرة العراقية التي توجد بالمشرق، و من بين هذه المصادر كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي[1]، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي[2]، و"الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري[3]، وتميز ليون الإفريقي بالإشارة إلى كون مدينة البصرة قد اقتبست اسمها من اسم بصرة المشرق[4].

وأرفق كتاب آخرون اسم البصرة بأسماء أخرى مثل لفظ "بصرة الذبان"

---

1 - يقول المقدسي (المعروف بالبشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل 1877، ص4 : " ... البصرة بالعراق و مدينة بالمغرب .... " .

2 - ويقول الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، المجلد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت د--ت، ص 430 : "البصرة: هما بصرتان: العظمى بالعراق و أخرى بالمغرب" .

3 - كما أورد الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، د--ت، ص 108 أن "البصرة بالعراق و بالمغرب" .

4 - أورد الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي أن هذه المدينة سميت بالبصرة تذكيرا بالبصرة المتواجدة بالمشرق العربي.

L'Africain (J-L), Description de l'Afrique, traduit de l'italien par A. Epaulard, Librairie d'Amérique et d'orient. Orient- Maisonneuve, Paris (VI°) 1956, p 259.

و "بصرة الكتان" أو "الحمراء"[5]. ومازال اسم البصرة يستعمل لحد الآن، حيث أن المكان الذي تتواجد به بقايا هذه المدينة يسمى : "دوار اجعاونة البصرة".

أما فيما يخص موقع مدينة البصرة، فقد أشارت العديد من النصوص التاريخية إلى وجودها بين عدة مدن مهمة مثل فاس وطنجة، وإلى توفر موقعها على مؤهلات طبيعية مهمة وخصائص مناخية ملائمة. وحدد المقدسي المسافة الفاصلة بين البصرة وفاس بستة مراحل[6] وبينها وبين أصيلا بثمانية مراحل[7]، كما جعل موقع البصرة بالسوس الأدنى، شأنها شأن مدن أخرى مثل سلا وسبو وأصيلا [8]. ونستخلص من خلال نصوص هذا الكاتب أن السوس الأدنى يقع شمال السوس الأقصى الذي يشتمل على مدن أخرى مثل أغمات وماسة[9].

وحسب البكري، فإن البصرة تقع في الطريق الرابطة بين طنجة وفاس وتفصلها مرحلة واحدة عن نهر ردات الذي يمر مجراه عند قدم الجبل المتواجدة في أعلاه مدينة كرت[10]. وقدر ابن عذاري المراكشي المسافة الفاصلة مابين أصيلا وفاس

5 - البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، وهو جزء من كتاب المسالك و الممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت .ص 109.

- كاتب مراكشي مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار و غرائب الأبصار، نشر وتعليق د.سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص189.

- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، الجزء الأول تاريخ إفريقية و المغرب من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق و مراجعة ج - س كولان وإ - ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت ص 237.

6 - وحسب RED في موسوعة الإسلام :

- RED."MARHALA", in Encyclopédie de l'Islam, N.E Leideur E.J. Brill, Paris, G-P Maisonneuve et Larose, S.A, 1991,TVI, P 543.

المرحلة مصطلح استعمله كتاب الرحلات الجغرافية لقياس المسافات بين المناطق، حيث يبلغ طول المرحلة، عند المقدسي، حوالي 7 أو 8 فراسخ، وإذا علمنا أن الفرسخ الواحد يعادل 6 كيلومترات، فإن المرحلة تساوي حوالي46 كيلومترا.

7 - المقدسي، م، س، ص. 247.

8 - المقدسي، م، س، ص. 219.

9 - المقدسي، م، س، ص. 221.

10 - البكري، م، س، ص. 109.

عبر مدينة البصرة في خمسة أيام[11].

من جهة أخرى، أجمعت العديد من المصادر التاريخية على خصوبة أراضي موقع مدينة البصرة وكثرة مياهه و حقوله و بساتينه واعتدال هوائه و اتساع مراعيه[12]، بالإضافة إلى هذه المؤهلات الطبيعية، توفرت على منفذ بحري أشار إليه ابن حوقل، و يتعلق الأمر ببحيرة أريغ، أي ما يسمى حاليا بالمرجة الزرقاء[13].

يوجد الموقع الأثري لمدينة البصرة حاليـا، على بعد حوالي 22 كلم من مدينة سوق أربعاء الغرب، وحوالي 33 كلم من مدينة وزان. يمتد على مساحة 30 هكتار، وتشقه الطريق الرئيسية المعبدة الرابطة بين سوق الأربعاء ووزان. وتستقر بالقسم الشمالي الأوسط منه قرية تسكنها عائلات من المزارعين[14].

تفيد عدة مصادر تاريخية أن مدينة البصرة أسست في نفس الفترة الزمنية التي أسست فيها مدينة أصيلا. وفي هذا الإطار يقول البكري: "ومدينة البصرة محدثة أيضا، أسست في الوقت الذي أسست فيه أصيلا أو قريبا منه "[15]ونفس الإشارة أوردها ياقوت الحموي[16] وابن عذاري[17] والحميري[18] دون إعطاء تحديد دقيق لتاريخ تأسيس المدينة. غير أن استقراء بعض النصوص التي تحدثت عن

---

11 - ابن عذاري، م، س، ص 237 .

12 - نذكر من بين هذه المصادر على الخصوص :

- ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 81.

- البكري، م، س، ص 109.

- الإدريسي، (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، الطبعة الأولى، بيروت 1409هـ/ 1989م، ص67.

13 - ابن حوقل، م، س، ص81.

14 - توري (عبد العزيز)" البصرة"، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، مطابع سلا، 1411-1991، المجلد 4، ص 1253.

15 - البكري، م، س، ص. 109.

16 - الحموي، م، س، ص. 441.

17 - ابن عذاري، م، س، ص. 235.

18 - الحميري، م، س، ص. 108.

تقسيم محمد بن إدريس (213هـ – 221هـ) مدن ومناطق المغرب الإدريسي – ومن ضمنها البصرة – على إخوته، يجعلنا نستنتج أنها كانت متواجدة في عهد إدريس الثاني (175هـ – 213هـ)[19]. ويفترض بعض الباحثين المعاصرين أن يكون إنشاؤها قد تم في أوائل القرن 3هـ/ القرن 9 م [20].

لايستبعد باحثون آخرون، ومنهم دانييل أستاش، أن يكون موقع البصرة قد شهد تجمعا بشريا قبل عهد الأدارسة، فطوره هؤلاء إلى مرتبة مدينة[21].

---

19 – حول هذا الموضوع يقول البكري، م، س، ص 123 : "…. وتولى الأمر بعد أبيه منهم محمد وفرق البلاد على إخوته برأي جدته كنزة … فتولى القاسم أخاه البصرة وطنجة وما والا لهما …". حكم القاسم البصرة من 213 هـ إلى 216هـ ومن 234 هـ إلى 254 هـ.

– وتتفق رواية البكري مع ما ذكره ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر وديوان المبتدإ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1959، القسم الثاني، المجلد السادس، ص 447، قائلا : "واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة".

– أما ابن أبي زرع (علي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1999. ص 63-64، فقد جعل البصرة ضمن الإقليم الذي كان من نصيب يحيى بن إدريس الثاني.

يقول ابن أبي زرع في الصفحتين المذكورتين: "… ولى أخاه يحيى مدينة البصرة ومدينة أصيلا ومدينة العرائش إلى بلاد ورغة …".

20 -Yver (G),"Al-Basra" in Encyclopédie de l'Islam, TI, Lyde, Paris, 1913, P. 1120.

- Eustache (D), EL-Basra, capitale Idrissite et son port" in Hesperis, T 42, 1955, P. 229.

– الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزء 2، الرباط 1980. ص 310، هامش 102. حيث أن مترجمي الكتاب حددا تاريخ تأسيس مدينة البصرة في سنة 218 هـ/833 م.

21 - Eustache (D), Corpus des dirhams Idrissites et Contemporains, collection de la Banque du Maroc et autres collections, Rabat, 1970, P. 119.

– توري، م، س، ص 1253.

– وبشأن هذه المسألة تحدث شارل تيسو وهنري طيراس في كتابيهما :

- Tissot (CH), Recherches sur la géographie comparée de la Mauritanie Tingitane, Paris, 1977, P. 160.

- Terrasse (H), Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français, Casablanca, 1949 - 1950, T.I, P. 61.

وتنبغي الإشارة إلى أن أقدم الدراهم التي وصلتنا والتي ضربت بالبصرة ترجع إلى عهد إدريس الثاني، ويتعلق الأمر بدرهم نشره د. أستاش في كتابه جامع الدراهم الإدريسية و المعاصرة[22]. و هذا يدل على أن مدينة البصرة كانت موجودة في عهد إدريس الثاني، مما يؤكد ما ذكره البكري وابن خلدون وابن أبي زرع من كون البصرة كانت ضمن المدن التي قسمها محمد بن إدريس على إخوته.

وقد ذكر البكري أنه قد ولي حكم البصرة القاسم بن إدريس، ثم أخوه عمر، ثم علي بن عمر ثم القاسم مرة أخرى[23]. ويضيف ابن عذاري أن المدينة قد ولي حكمها بعده ابنه إبراهيم، ثم عدد من الأمراء الأدارسة منهم أبو العيش عيسى و أحمد بن القاسم ...[24]

II - الجوانب الحضارية لمدينة البصرة من خلال النصوص التاريخية والآثار:

1 - المنشآت المعمارية :

لاتقدم لنا المصادر التاريخية صورة كافية عن مباني مدينة البصرة مثل أسماء أحيائها أو وصف منازلها ومراكزها الصناعية، غير أنها قدمت لنا صورة عامة عن بعض معالمها العمرانية الأساسية. وينحصر جل ما أشارت إليه في سورها وأبوابها الخارجية وجامعها وحماماتها وأسواقها ومقابرها وآبارها. وتعد إشارات ابن حوقل والبكري من أهم الروايات التي تطرقت لوصف بعض هذه العناصر المعمارية، وهو نفس الوصف الذي نجده، في أغلب الأحيان، عند الكتاب اللاحقين.

22 - Eustache, corpus...op-cit, P. 184.

23 - البكري، م س، ص. 124

24 - إبن عذاري م س ص. 235 - 237

فقد أشار ابن حوقل إلى أن" (...) البصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع ولها مياه عن خارجها من عيون (...) وهي ... حسنة الأسواق والعمارة (...)" [25]. بينما ذكر البكري بأن البصرة" ... مدينة كبيرة واسعة (...) وسورها مبني بالحجارة والطوب (...) ولها عشرة أبواب ولجامعها سبع بلاطات وبها حمامان ومقبرتها الكبرى في شرقيها في جبل ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة، وماء المدينة زعاق وشرب أهلها من بير عذبة على باب المدينة تعرف ببير ابن ذلفاء ..."[26].

من المحتمل أن يكون الوصف الموجز الذي قدمه ابن حوقل واستعماله عبارة "مدينة مقتصدة" راجع إلى تصنيف يميزها عن مدن أكبر منها، بينما بني وصف البكري لها بأنها "مدينة كبيرة" على أساس تصنيف يميزها عن مدن أصغر منها. ومما يجعلنا نرجح ذلك أن الوصف الذي يقدمه البكري عن مدن أخرى مثل أصيلة، يدفع إلى الاستنتاج بأن عدد الوحدات العمرانية وعدد سكان البصرة كانا أكثر أهمية مما نجده في أصيلة التي لم يشتمل جامعها سوى على خمس بلاطات ولم تتوفر إلا على مقبرة واحدة [27].

وشأنها شأن المصادر التاريخية لاتتيح قلة الأبحاث الأثرية التي خصت لحد الآن موقع البصرة التوفر على نظرة شاملة عن مكوناتها المعمارية [28]، لكن هذا لايعني إغفال النتائج المفيدة التي كشفت عنها، والتي تسمح باستنتاج المعطيات العمرانية التالية :

---

25 ـ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ليدن، مطبعة بريل، 1938، ص. 80.

26 ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص. 110

27 ـ البكري، م، س، ص. 111.

28 ـ يتعلق الأمر ببعض الأسبار والحفريات المحدودة التي قامت بها بعثات مكونة من فرق أثرية مغربية أمريكية خلال ثمانينات وتسعينات القرن العشرين.

* السور [29] :

أحاط بالمدينة سور تحصيني يبلغ طوله حوالي 2.5 كلم. وإذا سلمنا بعدم وجود توسع في العمران خارجه، فإن المساحة التي امتدت فوقها البصرة توازي مايقارب 30 هكتارا، وتكون شكلا بيضاويا قريب من شبه مستطيل، يصل طوله إلى حوالي 625 م وعرضه إلى حوالي 500 م.

وقد شكلت الأحجار المتوسطة الأحجام المادة الرئيسية في بنيان السور. ورغم سمك ومتانة هذا الأخير لم يبق صامدا منه إلا الجزء الشمالي الغربي. ويبلغ سمك هذا الجزء 2.20 م، وكان معززا بثمانية أبراج نصف دائرية، يبلغ قطرها 4 م، ويبعد الواحد منها عن الآخر بحوالي 26 م.

* الخزان المائي:

توجد خارج السور الغربي للمدينة و على مسافة قريبة منه بقايا خزان مائي مدفون، و يوازي طول الجزء الذي كشف عنه 6 م وعرضه 4.25 م. و توجد عند التقاء جدرانه سواري مبنية بالحجارة بالإضافة إلى آثار أقواس السقف [30].

* أفران الحي الصناعي :

كشفت الحفريات الأثرية التي أنجزت خلال ثمانينات وتسعينات القرن الماضي بالمنطقة الغربية الوسطى للموقع عن وجود حي صناعي يشتمل على عدد مهم من الأفران المتخصصة في إنتاج الأواني الخزفية أو القرمود أو مادتي الجير والجبس [31].

---

29 - عبد العزيز توري "البصرة" معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، سلا، 1991، المجلد 4، ص 1254.
- N.L Benco, A. S. Ettahiri et N. Meftah,"Recherches sur la numismatique du Maroc islamique, Etude préliminaire des monnaies ummayyades d'Al-Basra". B.A.M. T. 20, 2004, pp. 347 - 348.
30 - N.L Benco, A.S Ettahiri et N. Meftah, Op. cit, p. 348
31 - عبد العزيز توري، " البصرة "، م. س. ص. 1254(7)
- N.L Benco, A. S. Ettahiri et N. Meftah, op. cit. p. 349.

ومن خلال دراسة بعض هذه الأفران يرى س.النهيض وجود تشابه في بنيتها مع بنية فرنين يرجعان إلى عهد الخلافة الأندلسية الأموية، عثر على أحدهما بطليطلة و على الآخر بسرقسطة [32].

وتمتد أرضية أحد هذه الأفران – الفرن F_3 – على مساحة مستطيلة (3.5م x 4 م)، وكان يشتمل على أقواس تمكن من دعم سقفه. وتتكون المواد الأساسية لبنائه من الطوب والأحجار. ويبدو من مخلفاته الأثرية بأنه كان متخصصا في إنتاج الفخار وبشكل خاص القرمود.

* *بقايا منشآت معمارية أخرى :*

كشفت الحفريات الأثرية التي أنجزت شرق الحي الصناعي عن بقايا مبان سكنية و أرضيات غرف رصف بعضها بالجير والحصى المدكوك، ويمكن تراكب الجدران في موقعي الحفريات (G1 و G2) من تمييز ثلاث مستويات استراتيغرافية لمراحل مختلفة، وهو مايتفق مع المعطيات التاريخية العامة للموقع، منذ مرحلة التشييد خلال القرن الثالث وإلى غاية إعادة التعمير التي تمت بعد مرحلة السيطرة الخارجية خلال القرن الرابع[33]. وقد مكنت حفريات سنة 1999 من الكشف عن بقايا جدران مبنية بالأحجار يخص بعضها منشأة معمارية كانت قائمة بالبصرة إلى غاية سنة 368 هـ، على أقل تقدير، أي خلال الفترة الموافقة للغزو الفاطمي المدمر الذي استهدف المدينة. واحتفظت هذه المنشأة بعتبة مدخل من حجارة منجورة عثر تحتها على 10 قطع نقدية أموية، تحمل أحدثها سنة 368 هـ[34].

كما تم اكتشاف بقايا منشأة متخصصة في صناعة الحديد وتحتوي على

---

32 - S. Ennahid, contribution à l'étude de la céramique Médiévale d'Al-Basra (Maroc), Memoire de fin d'études du II cycle, INSAP, 1991 - 1992, p. p. 24-26.

33 – عبد العزيز توري، "البصرة" م. س. ص. 1254

34 - N.L Benco et autres, " Recherches sur la numismatique ..." op. cit, pp. 347 - 350

حوض مائي مبني بالحجارة، عثر بالقرب منه على كميات مهمة من بقايا ونفايات الحديد المصهور، بالإضافة إلى الشظايا الناتجة عن عمليات طرق الحديد.

2 - الحياة الاقتصادية :

2 - 1 الميدان الفلاحي :

من خلال المعطيات الجغرافية الحالية ومن خلال عدد من الروايات التاريخية يتبين بأن الفلاحة شكلت إحدى الدعامات الأساسية للحياة الاقتصادية لمدينة البصرة ونواحيها نظرا لاعتدال مناخها وخصوبة الأراضي المحيطة بها واتساع مراعيها وكثرة مياهها. وقد ساهم توفر هذه العناصر في استصلاح الأراضي واستغلال المياه وإنشاء الضياع والبساتين.

ومن بين الكتاب الذين أشادوا بالوضع الزراعي الجيد للبصرة، نجد ابن حوقل الذي أشار إلى أن" .... لها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة .... ولها غلات كثيرة .... وهي خصبة كثيرة الخير طيبة الهواء صحيحة التربة ..."[35].

وقد تنوعت المحاصيل الزراعية التي أنتجتها منطقة البصرة، ومن أهمها القمح والشعير والقطن والقطاني. وقد أكدت الأبحاث الأثرية التي أجريت في المختبر على عينات من المخلفات النباتية المكتشفة بالموقع على تنوع المنتوجات الزراعية.

كما اشتهرت البصرة بمنتجاتها المرتبطة بتربية المواشي وبإنتاج كميات وافرة من الألبان، حيث ذكر البكري بأنها" .... أوسع تلك النواحي مرعا وأكثرها ضرعا، ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان ...."[36].

---

35 – ابن حوقل، م. س. ص. 80

36 – البكري، م. س. ص. 110-111

وتبين من خلال دراسة 28455 قطعة من العظام المكتشفة بالموقع، بين سنتي 1990 و 1999، ارتفاع وتنوع إنتاج اللحوم بالبصرة، حيث أن هذه العظام هي بالأساس لأبقار وأغنام وماعز ودجاج و أرانب.

2 - 2 الميدان الصناعي :

لم يحظ الإنتاج الصناعي في الروايات التاريخية بنفس الاهتمام الذي حظي به الجانب الفلاحي. وقد ساهمت الأبحاث الأثرية في الكشف عن بعض اللقى المرتبطة بالصناعات الخزفية والمعدنية والزجاجية. كما ألقت الضوء على وجود حي صناعي يشتمل على مجموعة من الأفران المتخصصة في إنتاج الأواني الخزفية والقرمود والجير والجبس.

ولعل من أبرز الصناعات التي شهدتها مدينة البصرة، والتي يمكن استنتاجها من خلال المصادر أو الآثار، تلك المرتبطة بفنون العمارة مثل إنتاج القرمود ونجر الأحجار وصناعة الأبواب. وبما أن البصرة كانت حسب البكري "... كبيرة واسعة ... وسورها مبني بالحجارة والطوب ... ولها عشرة أبواب ..." [37]، فمن الطبيعي أن تكون عناصرها المعمارية بحاجة، بين وقت وآخر، إلى إنتاج متطلبات صيانتها.

وقد كشفت الحفريات الأثرية في بعض المواقع عن كميات كبيرة من القرمود والأحجار المنجورة المعزولة أو المكونة لما تبقى من جدران الأبنية المهدمة.

2-3 الميدان التجاري:

شهدت مدينة البصرة حركة تبادل تجاري نشيط مع المناطق المجاورة ومع بعض البلدان البعيدة كإفريقية، ومما ساهم في تسهيل نشاطها التجاري وفرة

---

37 - البكري، م. س. ص. 110

خيراتها الفلاحية والصناعية وأسواقها وموقعها الاستراتيجي الرابط بين المسالك البرية المؤدية إلى عدد من المدن كفاس وطنجة وسبتة. وبالإضافة إلى ذلك استعمل تجار البصرة بحيرة آريغ للنفاذ إلى المسالك البحرية. وهذه البحيرة حسب ابن حوقل "... أصلها من البحر المحيط صغيرة ترسي فيها المراكب الأندلسية التي تحمل غلات الناحية وفيها يركب أهل البصرة ويشحنون من نواحيهم ..."[38].

كما استعملوا الممر المائي لنهر "سفدد" للوصول إلى المسالك البحرية، حيث يذكر ابن حوقل بأن "... وادي تشمس هذا المعروف بسفدد .... وفيه يحمل أهل البصرة تجاراتهم في المراكب ثم يخرجون إلى البحر ...."[39]. كما يشير إلى أن "... بين مدينة تشمس هذه وبين مدينة البصرة دون المرحلة على الظهر ..."[40]. ويطلق البكري على نفس النهر اسم "واولكس" حيث يقول: "... نهر واولكس ... جريته ... إلى الغرب ... يهبط إلى سوق كتامى ... ثم إلى مدينة تشومس ... ويسمى بذلك الموضع بسفدد ..."[41].

ومن خلال رواية ابن حوقل نستنتج بأن القطن كان من أهم الصادرات الفلاحية. ولا يعني هذا استبعاد تصدير مواد أخرى كالحبوب خلال فترات توفر فائض مهم منها، إذ أشادت نفس الرواية بجودة مردودية الإنتاج الفلاحي ودوره في التجارة، حيث تذكر بأن للبصرة "... غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها، ومن غلاتهم القمح والشعير والقطاني وسهمهم من ذلك وافر وهي .... حسنة الأسواق ...."[42].

---

38 - ابن حوقل، م. س. ص: 81

A. S. Ettahiri, La ville médiévale d'al-Basra et ses deux ports atlantiques (Maroc du Nord), dans Rotte e porti del mediterraneo dopo la caduta dell'impero romano d'occidente : continuita e innovazioni tecnologicche e funzionali, Genova, 18 n° 19 juin 2004. p. 155-168 (sous presse)

39 - ابن حوقل، م.س.ص. 79-80

40 - ابن حوقل، م.س.ص. 80

41 - البكري، م.س.ص. 114

42 - ابن حوقل، م.س.ص. 80

ولم تستطع الدراسة في المختبر لحد الآن، كما هو الشأن بالنسبة للحبوب والقطاني، تأكيد إشارات ابن حوقل والإدريسي حول كثرة إنتاج القطن بالبصرة. وربما يرجع ذلك إلى طبيعة تكوينه النباتي الذي يتعذر مع مرور الوقت تمييز بقاياه.

ويبدو بأن السلع المصدرة لم تشمل فقط الإنتاج الفلاحي، بل شملت أيضا المواد المصنعة التي كان بالإمكان إنتاج فائض منها. ونخص هنا بالذكر الإنتاج الخزفي، حيث يظهر من شكل الأفران وكثافة انتشارها على جزء مهم من وسط المنطقة الغربية للموقع بأن إنتاجاتها الخزفية لم تكن على الأرجح مقتصرة على سد حاجيات أهل البصرة بل صدر ما زاد عن الحاجة خارجها.

كما اتضح، من خلال التحريات الأثرية، والتحليلات المختبرية، أن أزيد من 80% من القطع الخزفية المنتجة بالبصرة، تغطي مساحات تفوق أحيانا 50 كلم، مع تمركز كبير في كميتها بمنطقة مولاي بوسلهام ومحيط مدينة القصر الكبير. وهذا دليل على أن الخزف كان من السلع المصدرة. كما كانت بعض أنواعه من السلع المستوردة، حيث عثر بالموقع على أنواع مشابهة لخزف عهد الخلافة الأموية مثل الخزف المشغول حسب تقنية الخيط اليابس (cuerda secca).

ومن جهة أخرى، تدل القطع النقدية الأموية المغربية التي عثر عليها بالموقع على أهمية اقتصاد البصرة وتجارتها. وتنطبق نفس الملاحظة على الصنج الزجاجية المكتشفة والتي تشبه نظيرتها العبيدية الفاطمية.

وكان نشاط الحركة التجارية، يتأثر سلبيا خلال فترات الحروب مع بعض المناطق، ويمكن استنتاج ذلك من خلال حديث ابن حوقل عن قبائل برغواطة، حيث كان" ....أهل البصرة ومدينة فاس يغزونهم في بعض الأوقات ويتاجرونهم .... على ما يرونه ولاتهم ...."[43].

43 - ابن حوقل، م.س.ص. 83

3 - المظاهر الاجتماعية والثقافية :

لم تذكر المصادر التاريخية معلومات كثيرة عن المظاهر الاجتماعية و الثقافية لمجتمع البصرة، باستثناء بعض الإشارات المقتضبة التي لا تخلو من فائدة، حيث نستخلص منها بأن سكان البصرة تميزوا بمجموعة من الخصال والصفات الحميدة مثل الوداعة والجمال وحسن الخلق والأدب والاعتدال والعفة والسلم والمعروف والعلم والخير .... وهذا ما نجده مثلا عند ابن حوقل الذي وصف سكان البصرة بأن لهم "ميل إلى السلامة والعلم، ولهم محاسن في خلقهم قد عمت نساءهم ورجالهم، والغالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتدال الخلق وجمال الأطراف، ويشملهم الستر والسلامة والمعروف"[44]. كما تحدث عنهم الشريف الإدريسي قائلا : ".... وأهلها أعفاء ولهم جمال وحسن أدب"[45]، ويؤيدهما في ذلك ياقوت الحموي الذي أشار إلى أن".... أهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة واعتدال الخلق"[46]. وأشادت بعض النصوص التاريخية بحسن نساء البصرة وجمالهن مقارنة مع بعض المناطق المغربية آنذاك[47]. وفيما يخص التركيبة السكانية لأهل البصرة، يمكن القول إنها

44 - ابن حوقل، م. س. ص. 80

45 - الإدريسي ،م.س.ص. 67

46 - الحموي، م. س. ص. 440

47 - من بين كتاب النصوص التاريخية الذين وصفوا جمال نساء البصرة : البكري، م. س. ص: 109، الذي قال: "ونساء البصرة مخصوصة بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن" وقد نقل عنه مؤرخون وجغرافيون آخرون فحوى كلامه هذا، و منهم :

- الحموي، م. س. ص. 441
- الإدريسي، م. س. ص. 67
- الحميري، م. س. ص. 108

كانت تتشكل أساسا من الساكنة المحلية الأمازيغية و من جالية مهمة من العرب خاصة الأندلسيين[48].

ونستخلص من المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية أن مجتمع مدينة البصرة كان يتكون من فئات متنوعة منها : الأمراء والحكام والتجار والفلاحون والرعاة والصناع والحرفيون والعلماء والفقهاء والجنود .... ويبدو من خلال ماذكرته المصادر التاريخية و ما كشفت عنه الآثار أن مجتمع البصرة كان مجتمعا إنتاجيا متميزا بجديته وتنوع أنشطته الاقتصادية سواء منها الفلاحية أو الصناعية أو التجارية، وأن ذلك ترك أثرا إيجابيا في تسهيل حياتهم ومعاملاتهم اليومية ولا سيما خلال فترات السلم. ومن المحتمل أن تكون المميزات الطبيعية للبصرة قد ساهمت في جعلها خلال بعض فتراتها إقامة صيفية للأدارسة، نظرا لما توفره من سبل الراحة والتنزه والصيد وفقا لما ذكره الحسن الوزان ومارمول[49].

بالإضافة إلى ما سبق استنتاجه من حرص سكان البصرة على التعلم والعلم، يمكننا أن نستنتج أيضا من خلال بعض المصادر بأن المدينة قد شهدت نهضة ثقافية واهتماما كبيرا بالشعر، وبشكل خاص من طرف حكامها، وهذا الاهتمام جعلها أحيانا مقصدا للشعراء من مدن أخرى مثل تاهرت، وهي موطن الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي المعروف بابن الخزار، الذي نظم قصيدة في مدح أبي العيش بن إبراهيم بن القاسم، أحد أمراء مدينة البصرة. ومن بين أبياتها :

---

48 - يقول ابن عذاري، م.س.ص. 235: " ... وكان فيها عمارة عظـيمة من الأندلس والبربر ...".
- بن عبد الله (عبد العزيز)، "بين بصرة المشرق وبصرة المغرب" اللسان العربي، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، الرباط، 1980، ص227.
ولعل أسماء بعض الأماكن الواردة في المصادر التي تحدثت عن مدينة البصرة، تدل على كثرة العنصر العربي فيها. و من أبرز هذه الأسماء: البصرة، مقبرة قضاعة، بئر ابن ذلفاء ....؟!

49 - J. L. L'Africain, op. Cit, p. 259- 197 : مارمول، م. س. ص

تاهرت أنت خلية وبرية عوضت منك ببصرة فاغتاض
لا عذر للحمراء في كلفي بها أو تستعيض بأبحر وحياض
ما عذرها والبحر عيسى ربها ملك الملوك ورائض الرواض[50]

وقد اهتم سكان البصرة ولا سيما منهم فئة الخطاطين بجودة الخط العربي وإبراز جماليته. ويبدو ذلك جليا من خلال ما وصلنا من نقود مضروبة بالبصرة، نشرها بعض الباحثين[51]، حيث بلغت جودة الخط الكوفي على بعضها مستوى جيدا.

ومما سبق، يمكننا القول بأن مدينة البصرة قد شهدت ازدهارا ثقافيا وفنيا يوازي الازدهار الاقتصادي والعمراني. كما تفاعلت بشكل ايجابي مع غيرها من المناطق الأخرى نظرا لما كان لها من علاقات ناتجة عن التبادل التجاري والتحركات البشرية، خاصة مع إفريقية والأندلس.

لكن، وبعد فترة الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والعمراني الذي عاشته خلال القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، شهدت مدينة البصرة تدهورا ملحوظا بسبب الصراع الكبير الذي نشب بين الخلافتين الفاطمية بإفريقية والأموية بالأندلس، والذي كانت مسرحا لأحداث بارزة منه. ونظرا لقوة الضغوطات العسكرية الخارجية التي تعرضت لها، كانت هذه المدينة تضطر للخضوع تارة للنفوذ الفاطمي وتارة أخرى للحكم الأموي بالأندلس.

ويمكن إجمال أبرز مراحل تضرر مدينة البصرة من التدخلات الفاطمية الأموية فيما يلي:

– مرحلة سيطرة موسى بن أبي العافية – خلال موالاته للفاطميين – على

50 – البكري، م. س. ص. 109

51 - Benco (N-L), Ettahiri (A-S), et Meftah (N), " Recherches sur la numismatique du Maroc, étude préliminaire des monnaies Ummayyades d'Al-Basra" B.A.M, Txx, 2004, pp. 345-364.

البصرة و نواحيها، بعدما استولى على فاس سنة 313 هـ[52].

– مرحلة غزو القائد الفاطمي جوهر الصقلي للمغرب بأمر من المعز لدين الله الفاطمي، حيث استولى على مدينة البصرة سنة 347هـ، فأصبحت نتيجة لذلك مركز إمارة إدريسية تابعة للفاطميين بقيادة الحسن بن كنون[53].

– مرحلة الغزو الأموي سنة 362هـ، حيث بعث الحكم المستنصر القائد غالب إلى المغرب، فسيطر على البصرة وحجر النسر ونفى الحسن بن كنون إلى الأندلس[54].

– مرحلة رد الفعل الفاطمي على غزوات غالب الأموي، حيث ذكر ابن عذاري أن أبا الفتوح الصنهاجي المكنى "بلوكين" دخل سنة 368هـ، " .... بلاد المغرب و استولى عليها وهدم بلاد البصرة ومحا رسمها بعد طول مدتها وكثرة عمارتها ... فلما دخلها أمر بهدمها و نهب ما كان فيها من الأموال و الأمتعة .... فاستحالت الجيوش والأمم عليها فصارت كأن لم تغن بالأمس، فلم تكن بصرة بالمغرب إلى الآن"[55].

كما أشار المقدسي سنة 378هـ إلى أن "البصرة مدينة بالمغرب كبيرة، كانت عامرة وقد خربت وكانت جليلة"[56].

من خلال ما سبقت الإشارة إليه، يبدو أن الصراعات الفاطمية الأموية

---

52 – ابن أبي زرع، م. س. ص. 122

53 – ابن عذاري، م. س. ص. 237

54 – يقول ابن خلدون، م. س. ص. 451-452 : " .... واستصرخوا الحكم المستنصر، فبعث غالبا مولاه البعيد الصيت، المعروف بالشهامة ..... واتصل خبره بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة، واحتمل منها أمواله وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة ..... فاشتد الحصار على الحسن، وطلب من غالب الأمان فعقد وتسلم الحصن من يده ...."

55 – ابن عذاري، م. س. ص. 235

56 – يقول الحموي، م. س. ص. 440: "وقال البشاري : البصرة مدينة بالمغرب كبيرة كانت عامرة وقد خربت وكانت جليلة، وكان قول البشاري هذا سنة 378..."

– الهادفة لإخضاع المغرب – أثرت تأثيرا سلبيا على الحياة السياسية والاجتماعية و العمرانية لمدينة البصرة، حيث أنها بعد هجوم بلقين لم تعد تلعب الأدوار الأساسية كعاصمة إقليمية وكمدينة إدريسية، إلا أنها في الغالب ظلت مركزا تجاريا نشيطا في فترات لاحقة، نظرا لموقعها التجاري الإستراتيجي ونظرا لما تتوفر عليه نواحيها من مؤهلات طبيعية.

خلاصات:

نستنتج من خلال المحاور التي تم التطرق إليها بأن مدينة البصرة تعد من بين أهم المواقع الأثرية التي لاتكف عن إثارة انتباه الباحثين في ميادين علم الآثار والتاريخ و العناصر الحضارية المميزة للقرون الوسطى. وقد أثارت مدينة البصرة اهتمام عدد من كتاب المصادر التاريخية كابن حوقل والبكري ، بسبب مؤهلاتها وموقعها الرابط بين المسالك المؤدية إلى عدة مدن مثل فاس و طنجة، و نهر سفدد بالإضافة إلى مرسى بحيرة أريغ.

كما نستنتج بأن البصرة مدينة محدثة حسب بعض الكتاب ومنهم البكري والحميري. ومن خلال درهم مسكوك بها سنة 180 هـ ، نستشف بأنها كانت موجودة في عهد إدريس الثاني.

وقد أطلقت على المدينة أسماء متعددة مثل "بصرة الذبان" و"بصرة الكتان" و"الحمراء".

ورغم اهتمام العديد من المصادر التاريخية بعدة جوانب مرتبطة ببعض العناصر الحضارية لمدينة البصرة، فإنها لا تقدم لنا صورة كاملة عنها. وتعد روايات ابن حوقل في القرن 4 هـ و البكري في القرن 5 هـ وابن عذاري في القرن 8 هـ، من بين أهم الروايات المتميزة التي اقتبست بعض ما جاء فيها مصادر أخرى.

ففي المجال العمراني لمدينة البصرة، اقتصر جل ما أشارت إليه في السور و الأبواب و الجامع والحمامات و الأسواق. كما أشارت إلى بئر ومقبرتين خارجها.

وحول بعض الجوانب التاريخية للبصرة، يشير البكري إلى أنه بعد وفاة إدريس الثاني قسم ابنه محمد (213- 221 هـ) بعض المناطق والمدن على إخوته، ومن بينها البصرة التي تولى حكمها أخوه القاسم. وحسب ابن عذاري تولى حكمها بعده ابنه إبراهيم، ثم عدد من الأمراء الأدارسة منهم أبو العيش عيسى وأحمد بن القاسم ... وخلال فترات الاحتلالات الخارجية التي شهدها المغرب خلال القرن 4 هـ، تولى حكم هذه المدينة حكام معينون من طرف الأمويين والعبيديين.

وحظي المجالان الفلاحي والتجاري بنصيب مهم من اهتمام بعض الروايات. فعن الزراعة أشار ابن حوقل الى توفر ناحية البصرة على مياه العيون، وعلى غلات من بينها القمح و الشعير والقطاني. كما أشار البكري الى شساعة مراعيها وكونها مجالا خصبا لتربية المواشي.

ونظرا لكون القطن يعد من بين أهم المنتجات الفلاحية التي أنتجتها منطقة البصرة وفقا لما ذكره بعض الكتاب كالإدريسي، فإنه كان يصدر إلى عدد من البلدان كإفريقية، كما أشار الى دلك ابن حوقل.

وبالإضافة إلى استفادتها من المسالك البرية المؤدية إلى مدن ومناطق مهمة، استفادت مدينة البصرة من التجارة البحرية عبر بحيرة آريغ ونهر سفدد.

وقد توصلت الأبحاث الأثرية إلى نتائج أولية مفيدة تؤكد بعض معطيات المصادر التاريخية، وتضيف إليها معطيات جديدة لم تذكرها. ويمكن اجمالها في العناصر التالية :

- كانت البصرة مركزا حضريا محصنا بسور يقدر طوله بحوالي 2.5 كلم

ويقع خارج السور الغربي للمدينة خزان مائي.

- كانت البصرة مركزا صناعيا مزدهرا. حيث اكتشفت أفران وسط الجزء الغربي من الموقع. بعضها متخصص في إنتاج الأواني الخزفية والقرمود والجير والجبس. كما تم اكتشاف بقايا منشأة متخصصة في صناعة الحديد.

- كانت البصرة حاضرة فلاحية، فقد دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت في المختبر على عينات من المخلفات النباتية المكتشفة بالموقع على تنوع المنتجات الزراعية لنواحيها ومن أهمها الشعير و القمح والقطاني والعنب والتين. كما أن انتاج واستهلاك اللحوم بها كان مرتفعا ومتنوعا.

- جعل الموقع الاستراتيجي من البصرة محطة تجارية رئيسية، ومركزا مهما في عمليات التبادل التجاري.

وهذا ما كشفت عنه الدراسة الأثرية في المختبر، والقطع النقدية الأموية المكتشفة بالموقع، بالإضافة الى الصنج الزجاجية و القطع الخزفية ...

والخلاصة أننا نستنتج من معطيات المصادر التاريخية والمعلومات الجديدة التي تضيفها الأبحاث الأثرية الأولية، أن البصرة كانت مركزا حضريا وصناعيا مزدهرا، كما كانت حاضرة فلاحية ومحطة تجارية رئيسية.

وللأسف فإن هذا الموقع الأثري الغني بمعطيات حضارية مهمة عن بعض جوانب تاريخ المغرب بمنطقة الغرب غير مرتب باستثناء سوره، مما يستدعي تظافر جهود جميع الجهات المعنية، قصد ترتيبه وحمايته.

موقع مدينة البصرة على خريطة المغرب

